



تفسير
سورة الشورى



مكييل قطب

دار الشروق

تفسير سورة الشورى

سَيِّدُ قُطْب

تَفْسِيرُ
سُورَةِ
الشُّورَى

دار الشروق —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) عسق ٢ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُرْنَ
مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ
الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُمُ الْوَلِيُّ
وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩
(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَالَيْهِ أُنِيبُ ١٠ فَسَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
تَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ
أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
الْإِسْلَامَ فَهَذَا يُحْيِيكُمُ اللَّهُ ١١ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{١٢} شَرَعَ لَكُمْ مِنَ
 الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 وَمَا وَحَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ
 أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
 الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ^{١٣} وَمَا
 تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَشْيَا
 يَتَّبِعُهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
 أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ^{١٤}

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
 كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا
 وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا

حُجَّةٌ يَنْتَنَّا وَيُنْفِكُكُمْ اللهُ يَجْمَعُ يَنْتَنَّا
 وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ^{١٥} وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ
 بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 شَدِيدٌ^{١٦}

(اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
 وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ^{١٧}
 يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ
 آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَ
 إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ^{١٨} اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
 وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ^{١٩} مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
 الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
 حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ نَصِيبٍ^{٢٠} .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ
 الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ
 لَفُضِّيَ بَيْنُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ^{٢١} تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
 وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا
 يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ ^{٢٢} ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يُقْرِفْ
 حَسَنَةً نَّرِزْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ خَفِيرٌ
 شَكُورٌ ^{٢٣} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ
 الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ ^{٢٤} .

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوجدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدتها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق : بسطه وقبضه ؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ، وما يتصل بها ، تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السور ، والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض بوضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرزق . أو وحدانية المتصرف في التساوب . أو وحدانية

المتصرف في المصير .. ذلك بينما يتبعه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى - سبحانه - ووحدانية الوحي . ووحدانية العقيدة . ووحدانية المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرسم في النفس خط وحدانية بارزاً واضحاً ، يشق معانيه وشق ظلاله وشق إيماءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعاً .. ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالاً ، قبل أن نأخذ في التفصيل :

تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم . عين . سين . قاف » . يليها : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. مقررراً وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين : « إليك وإلى الذين من قبلك » ..

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم : « له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم » .. مقررراً وحدانية المالك لما في السموات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطراداً آخر في وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد ، وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض الناس : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ

عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل .. فإذا للكون كله مشغول
بفضية الإيمان والشرك حتى أن السماوات ليكدن يتفطرون من
شهوة بعض أمسل الأرض ، بينما الملائكة يستغفرون لمن في
الأرض جميعاً من هذه الفعلة الشتماء التي جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : « وكذلك
أوحينا إليك ، قرآنًا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها ،
وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في
السمر » ..

ثم يستطرد مع « فريق في الجنة وفريق في السمر » .. فيقرر
أن لو شاء الله لجمعهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت -
بإياديه من علم وحكمة - أن يدخل من يشاء في رحمته « والظالمون
ما لهم من ولي ولا نصير » . ويقرر أن الله وحده هو الولي
« وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحي والرسالة ،
فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شيء هو الله الذي
أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس في كل اختلاف : « وما
اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليه
توكلت ، وإليه أنيب » ..

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته .
ووحدانية المتصرف في مقادير السماوات والأرض ، وفي بسط

الرزق وقبضه . وفي علمه بكل شيء : « فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذروكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم » ..

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوم إليه . الله يحتي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يليب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من قبلهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ... الخ » ..

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة ، محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى السقي تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي .

وهذا النسق واضح وضوحاً كاملاً في هذا الدرس الأول من السورة . فالقاري يلتقي بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه ؛ وفي تنزييل النقيض برحمته ؛ وفي خلق السماوات والأرض وما بث فيها من دابة ؛ وفي الفلسك الجواني في البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب : « يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وحرهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » .. واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين :

« وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .. وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل قوات الأوان : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، مسا لكم من ملجأ يومئذ ، وما لكم من نصكير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة . حقيقة الوحي والرسالة . في جانب من جوانبها : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ... » .

ويمضي سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة

وإشارة إلى تلك الحقيقة ، حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ؛ ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » ..



وبعد فن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لمرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة ، ورسولها ، والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. لتقرر أن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل : وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها « .. لتقرر مركز القيادة الجديدة التي ستد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد مساقرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ..

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفًا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسداً : « ومسا تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ..

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ..

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتباب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم .. فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها في ريبة وفي شك لا تستقيم معها قيادة راشدة .

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها - ﷺ -
لهذه القيادة : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع
أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل
بينكم الله ربنا وربكم ... الخ » .. ومن ثم تجيء صفة الجماعة
المؤمننة الميزة لها طبيعية في سياق هذه السورة - في الدرس
الثاني - بوصفها الجماعة التي ستقوم على قيادة هذه البشرية على
ذلك النهج الثابت القويم .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها
الرئيسي والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه .
وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحاً ..



« حم . عسق . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك
الله العزيز الحكيم . له ما في السماوات وما في الأرض ، وهو
العلي العظيم . تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة
يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . ألا إن الله
هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ
عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل . »

سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور
بما في الكفاية . وهي تذكر هنا في مطلع السورة ، ويليهما
قوله تعالى :

« كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » ..

أي مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وهذه الطريقة يكون الوحي إليك وإلى الذين من قبلك . فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التي يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها ؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها بما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحي . وحدة مصدره فالوحي هو الله العزيز الحكيم . والوحي إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحي واحد في جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : « إليك وإلى الذين من قبلك » ..

إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة في أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة — على هذا النحو — حين تستقر في ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هذا الوحي : « الله العزيز الحكيم » .. كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحي في كل زمان ومكان ، فهذه أسرته تضرع في بطون التاريخ ، وتمتد جذورها في شعاب الزمن ، وتتصل كلها بالله في

النهاية ، فيلتقون فيه جميعاً . وهو « العزيز ، القوي القادر
« الحكيم » الذي يوحى لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير .
فأني بصرفون عن هذا المنهج الإلهي الواحد الثابت إلى السبل
المتفرقة التي لا تؤدي إلى الله ؟ ولا يعرف لها مصدر ، ولا
تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد في صفة الله الذي يوحى وحده إلى الرسل جميعاً ؛
فيقرر أنه المالك الوحيد لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه
وحده العلي العظيم :

« له ما في السماوات وما في الأرض ، وهو العلي العظيم » .

وكثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ، لجرده
أنهم يحدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ، يتفهمون بها ،
ويستخدمونها فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً .
إنما الملك الحقيقي لله ؛ الذي يوجد ويعدم ، ويجبي ويميت ؛
ويعلك أن يعطي البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب
بما في أيديهم من شيء ، وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب . .
الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق
الناموس المختار ، فتلي وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس .
وكل ما في السماوات وما في الأرض من شيء « لله » بهذا
الاعتبار الذي لا يشاركه فيه أحد سواه . . « وهو العلي
العظيم » . . فليس هو الملك فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة

على وجه التفرد كذلك . العلو الذي كل شيء بالقياس إليه
سفل ؟ والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضالة !

ومنى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر ،
عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن
رزق ومن كسب . فكل ما في السموات وما في الأرض لله .
والمالك هو الذي بيده العطاء . ثم إنه هو « العلي العظيم » الذي
لا يصغر ولا يسفل من يد يده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدهما
للمخاليق ، وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء !

ثم يعرض مظهراً لخصوص الملكية لله في الكون ، والعلو
والعظمة كذلك يتمثل في حركة السموات تكاد تنفطر من روعة
العظمة التي تستشعرها لربها ، ومن زينج بعض من في الأرض
عنها . كما يتمثل في حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ،
ويستغفرون لأهل الأرض من المحرافهم وتطاولهم :

« تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون
بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . ألا إن الله هو الغفور
الرحيم » ..

والسموات هي هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي تراها تعلو
حيثما كنا على هذه الأرض ، والتي لانعلم إلا أشياء قليلة عن جانب
منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض ما في السموات نحو
من مئة ألف مليون مجموعة من الشمس في كل منها نحو مئة ألف

مليون شمس كشمسنا هذه ، التي يبلغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ! وهذه المجموعات من الشمس التي أمكن لنا - نحن البشر - أن نرصدها بمرآصدها الصغيرة ، متناثرة في فضاء السماء مبعثرة ، وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين من السنوات الضوئية . أي المسوية بسرعة الضوء ، التي تبلغ ١٦٨,٠٠٠ ميل في الثانية !

هذه السماوات التي عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكبدن يتفطرون من فوقهم .. من خشية الله وعظمته وعالوه ، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التي يحسها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه !

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » .

والملائكة أهل طاعة مطلقة ، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة . ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم ، لما يحسون من عالوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير في حده وطاعته . ذلك بينا أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشتق الملائكة من غضب الله ، ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير . ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا ، كالذي جاء في سورة غافر : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم »

ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا .. وفي هذه الحالة يبدو : كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض ، حق من الذين آمنوا ، وكم يرتاعون لها ، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته ؛ واستهوالاً لأية معصية تقع في ملكه واستدراكاً لمغفرته ورحمته ؛ وطمعاً فيهما :

« ألا إن الله هو الغفور الرحيم » ..

فيجمع إلى العزة والحكمة ، العلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة .. ويعرف العباد ربهم بشق صفاته .

وفي نهاية الفقرة — بعد تقرير تلك الصفات وأمرها في الكون كله — يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس في الكون غيره من ولي . يعنى رسول الله — ﷺ — من أمرهم ، لما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

وتبدو للضمير صورة هؤلاء التناكيد التمساء ؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء ؛ وأيديهم بما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء تبدو للضمير صورتهم — في ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم في قدضته ضعاف صفار .

فأما النبي — ﷺ — والمؤمنون معه ، فهم معقون من التفكير في شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام .

ولا بد أن تستقر هذه الحقيقة في ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب في جميع الأحوال سوا كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر في الأرض ، أم كانوا من غير ذوي السلطان . تطمئن في الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر — مهما تجبروا — ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله ، والله حفيظ عليهم ، وهو من وراءهم محيط ، والكون كله مؤمن بربه من حولهم ، وهم وحدهم المنحرفون كالنخلة الناشاز في اللحن المتناسق ، وتطمئن في الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر في تولي هؤلاء غير الله ، فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق ، وليس عليهم إلا النصيح والبلاغ . والله هو الحفيظ على قلوب المعباد .

ومن ثم يسير المؤمنون في طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحى الله وأن ليس عليهم من ضير في الانحراف المنحرفين عن الطريق . كائناً ما يكون هذا الانحراف .



ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :
و كذلك أوحينا إليك قرآننا عربياً لتنذر أم القرى ومن

حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير . ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولي . وهو يحيي الموتى . وهو على كل شيء قدير ..

« وكذلك أوحينا إليك قرآننا عربياً ... » ..

يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحي على ذلك الطرف الذي بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية ، وهذا قرآنهم العربي . نزل الله به وحيه في هذه الصورة العربية ، ليؤدي به الغاية للرسومة :

« لتنذر أم القرى ومن حولها .. »

وأم القرى مكة المكرمة . المكرمة بيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هي — وما حولها من القرى — موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأتزل القرآن بلغتها العربية لأمريله ويريده . و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وحسين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقراؤها ، ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ما سارت هذه الدعوة في الخط الذي سارت فيه ، وأنتجت فيه نتائجها .. حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفاً من حكمة الله في اختيار هذه

البقعة من الأرض ، في ذلك الوقت من الزمان ، لتكون مقر الرسالة الأخيرة ، التي جاءت للبشرية جميعاً والسقي توضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعورة — عند مولد هذه الرسالة الأخيرة — تكاد تنقسمها امبراطوريات أربعة : الامبراطورية الرومانية في أوروبا وطرف من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الفارسية وقد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وثكادان تكوّنان منفصلتين على أنفسهما وممزولتين بعقائدهما واتصالاتها السياسية وغيرها وهذه الميزة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأمر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الإسلام — اليهودية والنصرانية — قد انتهتا إلى أن تقعا — في صورة من الصور — تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليها الدولة في الحقيقة ، ولا تسيطران على الدولة فضلاً على ما أصابها من المحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان قارة ، ولاضطهاد الفرس قارة ، ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ؛ وانتهت — بسبب عوامل شتى — إلى أن تكون ديانة مغلقة على بني إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوباً أخرى !

وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية . السقي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق السقي انتشرت فيها المسيحية سرّاً ؛ وهي تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهاداً عظيماً ، تخللتها مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة . فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني ، ودخل الامبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيراً بالديانة ؛ وظلت هي المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلاً . وذلك كله فضلاً على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل — فنياً بينها — مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقاً . وأوقع في الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمي للدولة . وهؤلاء وهؤلاء كافوا في الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء أ

وفي هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من المحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمر . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله على هدى وعلى نور . ولم يكن هناك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر . فلم يكن هناك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها

لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك
نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجية على طبيعته ؛ بل
يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت
الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات ، هي أصلح
مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ
منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات
وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة . تقف للعبيدة
الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعاً دقيقاً ،
كما هو الحال في الامبراطوريات الأربعة .

ولم تكن هناك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد
كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان
للمرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام .
ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة ، فإنه
لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه
الدين الجديد . ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة
لرؤساء قريش ما وقفوا هذه الوقفة في وجه الإسلام . فقد
كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة
النظام الديني ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحرراً من
كل سلطان عليه في نشأته ، خارج عن طبيعته .

في وسط هذه الخلقة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلي هو السائد . وكان للمشيخة وزنها في هذا النظام . فلما قام محمد - ﷺ - بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلي فرصة ، لأن المشائر كانت تشفق من إقارة حرب على بني هاشم بسبب حمايتهم لمحمد - ﷺ - وهم على غير دينه . بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من الفلاثل الذين أسلموا في أول الدعوة ، وتددع تأديبه - أو تعذيبه - لأهله أنفسهم . والموالي الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم . ومن ثم كان أبو بكر - رضي الله عنه - يشاري هؤلاء الموالي ريعتهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، ويمتنع فقتلهم عن دينهم .. ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضارة عميقة لبذور نهضة ؛ وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات قتها لهذه النهضة المنخورة لها في ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطوريتي كسرى وقيصرو . وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب

ورحلة الصيف إلى الشمال . المذكوران في القرآن في قوله تعالى :
« لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب
هذا البيت » الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . .
وتضافرت أسباب كثيرة لحشد وصيد ضخم من التجارب مع
التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة .
فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة
المختزنة ، التي كانت تتبها كنوزها للتفتح ، ففتحتها الله بفتح
الإسلام . وجعلها رصيذاً له وذخراً . ولعل هذا بعض ما يفسر
لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل
الأول في حياة الرسول - ﷺ - من أمثال : أبي بكر وعمر
وعثمان وعلي . وحزمة والعباس وأبي عبيدة . وسعد ابن أبي
وقاص وخالد ابن الوليد وسعد ابن معاذ ، وأبي أيوب الأنصاري
وغيرهم وغيرهم من تلك العصابة التي تلقت الإسلام ، ففتحت له ،
وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ، ولكنها كانت
تحمل البذرة الصالحة للنمو والتنام .

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمل
الرسالة الجديدة ، وصيانة لشأتها ، وتمكينها من الهيمنة على
ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها
لتكون مهد العقيدة الجديدة ، التي جاءت للبشرية جميعها . وإلى
اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة
- ﷺ - فذلك أمر يطول . ومكانه رسالة خاصة مستقلة .

وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التي يظهر التدبير
والنفكر بعض أطرافها كلما التسمت لجارب البشر وإدراكهم
لسان الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها .
فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها
للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة
الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها ، للبشرية
جميعها - كما هي طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم
أصلح خلق الله لحملها ونقلها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان
في الأرض لميلادها ولشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول - ﷺ - حتى
تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، ويتمخض هذا المهد للعقيدة التي
أختير لها على علم . كما أختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى
أقطار الأرض جميعاً . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ،
وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض .
ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت لحمل
هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة
العربية ثانياً .. وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيتها ، أصلح
ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه

الرسالة ، حيثما وجه الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره
ومصادق قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

« لتندر أم القرى ومن حولها ، وتندري يوم الجمع لا ريب
فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن
هو الإنذار بيوم الجمع . يوم الحشر . يوم يجمع الله ما تفرق من
الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من
جديد : « فريق في الجنة وفريق في السعير » بحسب عملهم في
دار العمل ، في هذه الأرض ، في فترة الحياة الدنيا .

« ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء
في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » ..

فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد
مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار . ولكنه — سبحانه — خلق
هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة في هذه الأرض . وجعل
من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذي أرادها ، أن تكون
للإنسان استعدادات خاصة يمنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن
الشياطين ، وعن غيرهما من خلق الله ذوي الطبيعة المفردة
الموحدة الاتجاه . استعدادات يمنح بها ومعهما فريق إلى الهدى
والنور والعمل الصالح ، ويمنح بها ومعهما فريق إلى الضلال
والظلام والعمل السيئ . كل منها يسلك وفق أحد الاحتمالات

الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشري ، وينتهي إلى
النهاية المفررة لهذا السلوك : « فريق في الجنة وفريق في السعير » ..
وهكذا : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي
ولا نصير » وفق ما يعلمه الله من حال هذا الفريق وذلك ،
واستحقاقه للرحمة بالهداية أو استحقاقه للعذاب بالضللال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر
هنا أن الظالمين : « ما لهم من ولي ولا نصير » .. فأولياؤهم هم
الذين يتخذونهم لا حقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل في استنكار :

« أم اتخذوا من دون أولياء ؟ » ..

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولي ، وأنه
هو القادر تتجلى قدرته في إحياء الموتى . العمل الذي تظهر
فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

« فأنه هو الولي ، وهو يحيى الموتى » ..

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شيء والتي
لا تنحصر في حدود :

« وهو على كل شيء قدير » ..



ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التي يرجع إليها عند

كل اختلاف . وهي هذا الوحي الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله كي لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد ذلك المنهج الإلهي القويم :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ، يذروكم فيه ، ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم .. »

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجميعها في هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفي والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » .. والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن ، وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة ، وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبين لهم هذا كله بياناً شافياً . وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً للحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا اختلفوا في أمر أو اتجهاء فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله - ﷺ - لتقوم الحياة على أساسه .

وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكي قول رسول الله ﷺ
مسلماً أمره كله الله ، منيباً إلى ربه بكلية :
« ذلكم الله ربي عليه توكلت ، وإليه أنيب » ..

فتجىء هذه الإبانة ، وذلك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان
رسول الله ﷺ في موضعها النفسي المناسب للتعقيب على
تلك الحقيقة .. فهاهو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو
ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه يئيب إليه دون سواه ،
فكيف يتعاكم الناس إذن إلى غيره عند اختلافهم في شيء من
الأمر ، والنبي المهدي لا يتعاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتعاكم
الناس إلى قوله الفصل ، لا يتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك ؟
وكيف يتجهون في أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبي المهدي
يتوكل على الله وحده ، ويئيب إليه وحده ، بما أنه هو ربه
ومتولي أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن ينير له الطريق
ويحدد معاله ، فلا يتلفت هنا أو هناك ، ويسكب فيه الطمأنينة
إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد
ولا يختار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه في
هذا الاتجاه . والنبي المهدي سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن يرفع من شعوره
بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجاً آخر أو طريقاً يصح

أن يتلفت إليه ؛ ولا يجد أن هنالك حكماً غير قول الله
وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبي المهدي ينسب إلى
ربه الذي شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقراراً وتمكيناً ؛
« فاطر السماوات والأرض » جعل لكم من أنفسكم أزواجاً
ومن الأنعام أزواجاً . يذروكم فيه . ليس كمثل شيء . وهو
السميع البصير .. »

فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون
فيه من شيء .. هو « فاطر السماوات والأرض » .. وهو مدبر
السماوات والأرض . والناموس الذي يحكم السماء والأرض هو
حكمه الفصل في كل ما يختص بها من أمر . وشؤون الحياة
والعباد إن هي إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه
فيها هو الحكم الذي ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون
المريض ، ليعيشوا في سلام مع الكون الذي يحيط بهم ، والذي
يحكم الله في أمره بلا شريك .

والله الذي يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من
شيء هو خالقهم الذي سوى نفوسهم ، وركبها : « جعل لكم
من أنفسكم أزواجاً » .. فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو
أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذي أجرى
حياتكم وفق قاعدة الخلق التي اختارها للأحياء جميعاً : « ومن

الأنعام أزواجاً .. فهناك وحدة في التكوين تشهد بوحداية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود .. إنه هو الذي جعلكم - أنتم والأنعام - تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعاً ، فليس هنالك من شيء يماثله - سبحانه وتعالى - : « ليس كمثله شيء » .. والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه - سبحانه - « ليس كمثله شيء » .. فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر : « وهو السميع البصير » .. ثم يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها قانوسها الذي يديرها : « له مقاليد السماوات والأرض » .. وهم بعض ما في السماوات والأرض ، لمقاليدهم إليه .

ثم إنه هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطاً - فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض - : « يبسط الرزق لمن يشاء

ويقدر .. فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم و ساقئهم . فلن
غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه
الناس إلى الرزاق الكافل المتصرف في الأرزاق . الذي يدبر هذا
كله بعلم وتقدير : « إنه بكل شيء عليم » .. والذي يعلم كل
شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل ..

وهكذا تتساق المعالي وتتناسق بهذه الدقة الحقة اللطيفة
العجيبة ؛ لتوقع على القلب البشري دقة بعد دقة ، حتى
يتكامل فيها لحن متناسق عميق !



ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا
إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقبلوا الدين
ولا تفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يفتي
إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يلب . وما تفرقوا إلا من
بعدهما جاءهم العلم - بنياً بينهم - ولولا كلمة حقت من ربك إلى
أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم
لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع
أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل
بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا
وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون في الله

من بعد ما استجيب له حجتهم «احضة عند ربهم ، وعليهم
غضب ولهم عذاب شديد » ..

لقد جاء في مطلع السورة . « كذلك يوحى إليك وإلى الذين
من قبلك الله العزيز الحكيم » .. فكانت هذه إشارة إجمالية
إلى وحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه . فالآن
يفصل هذه الإشارة ؛ ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو - في
عمومه - ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن
يقيموا دين الله الواحد ، ولا يفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها
من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القديم ، دون التفتات إلى
أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض
حجة الذين يحتاجون في الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب
الشديد .

ويبدو من التماسك والتناسق في هذه الفقرة كالذي بدا في
سابقتهما بشكل ملحوظ :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا
إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى . أن أقيموا الدين
ولا تفرقوا فيه » ..

وبذلك يقرر الحقيقة التي فصلناها في مطلع السورة . حقيقة
الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة في أصول الزمان . ويضيف
إليها لحة لطيفة الوقع في حس المؤمن . وهو ينظر إلى سلفه في
الطريق الممتدة من بعيد . فإذا هم على التابع هؤلاء الكرام . .

نوح . إبراهيم . موسى . عيسى ، محمد — صلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين — ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على درجتهم
يسير . إنه سيستروح السير في الطريق ، مهبطاً فيه من شوك
ونصب ، وحرمات من أعراض كثيرة . وهو برفقة هذا الموكب
الكريم على الله . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين
على شرعه الثابت ، وانتفاء الخلاف والشقاق ، والشعور بالقرى
الوثيقة ، التي تدعو إلى التعاون والتفاهم ووصل الحاضر بالماضي ،
والماضي بالحاضر ، والسير جملة في الطريق .

وإذا كانت الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين
بمحمد هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى . ففيم
يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب
المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أتباع موسى
وعيسى مع أتباع محمد ؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة
إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا
تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير ؟ والوصية
الواحدة الصادرة للجميع : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ،
فيقيموا الدين ، ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتفتوا
به ؛ ويقفوا تحت رايته صفاً ، وهي راية واحدة ، رفعها على
التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى — صلوات الله عليهم —
حتى انتهت إلى محمد ﷺ في العهد الأخير .

و لكن المشركين في أم القرى ومن حولها - وهم يزعمون أنهم على ملة ابراهيم - كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفاً آخر :

« كبر على المشركين ما تدعوم إليه » ..

كبر عليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل « على رجل من القريتين عظيم » أي صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش . ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان ؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبهوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آبائهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبهوا بالهاقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجمع ، على أن يوصم آبؤهم بأنهم ماتوا ضالين !

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذي يصطفي ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدي إليه من يرغب في كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

« الله يهتدي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » ..
وقد اجتنبى محمداً ﷺ للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن
ينيب إليه ويثوب .

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين
واحد ، فتفرق أتباعهم شيعاً وأحزاباً :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم - بغياً بينهم - ولولا
كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » وإن الذين
أوقوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ..

فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون
الأصل الواحد الذي يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما
تفرقوا بعد ما جاءهم العلم . تفرقوا بغياً بينهم وحسداً وظلماً
للحقيقة ولأنفسهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ،
والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة
الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لمقيدتهم ، واتبعوا
منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذاً عاجلاً ، جزاء
بغيتهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من
الله لحكمة أرادها ، بإسماهم إلى أجل مسمى « ولولا كلمة
سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » .. فعق الحق
وبطل الباطل ؛ وانتهى الأمر في هذه الحياة الدنيا . ولكنهم
موجهون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التي ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين
تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبي ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابتهم
بغير يقين جازم ، إذ كانت الخلافات السابقة مثاراً لعدم
الجزم بشيء ، ولشك والغموض والحيرة بين شق المذاهب
والاختلافات :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه
مريب . »

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هي للصخرة الصلبة
التي يقف عليها المؤمن ، فتميد الأرض من حسوله وهو ثابت
راسخ القدمين فسوق الصخرة الصلبة التي لا تميد . والعقيدة هي
النجم الهادي الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء
والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها
موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشيء ولا لأمر في نفس
صاحبها ، ولا قرار له على وجهه ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى
الله ، ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد
ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة
أحد ، وهم أنفسهم حائرون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندي أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا

خسر العالم بالمحطاط المسلمين : « أصبحت الديانات العظمى
فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمناققين ، حتى
فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ،
وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح
الفوضى والإحلال والإختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ،
وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست
في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من
الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري » (١) .

ويقول السكائب الأوربي « ج . هـ . دنيسون » في كتابه
« المواطن كأساس للحضارة » (٢) :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا
جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة
الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتسده به بما يقوم
مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى ، التي تكلف
بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرقة على التفكك والإحلال
وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية
إذ القبائل تتعارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم
التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والإنهيار ، بدلاً

(١) صفحة ٢٢ الطبعة الثانية .

(٢) ترجمة : Emotion as the Basis of Civilization

من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ككشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه « .. يعني محمداً ﷺ ..

ولأن أتباع الرسل تفرقوا - من بعد ما جاءهم العلم - ولأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم كانوا في شك منه مريب . . . لهذا وذلك ، وخلقوا مركز القيادة البشرية من قسائد ثبت مستيقن يعرف طريقه إلى الله .. أرسل الله محمداً ﷺ ووجه إليه الأمر أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المضطربة حوله وحول دعوته الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديده الإيمان بالدعوة الواحدة التي شرعها الله للنبيين أجمعين :

« فذلك فساد واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقيل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » . . .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء . القيادة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون الانحراف . وتنبأ عن الأهواء المضطربة المتناوذة من هنا وهناك . القيادة التي تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتي ترد

الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وورد البشرية كلها إلى ذلك
الأصل الواحد : « رقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » . .
ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل . « وأمرت لأعدل بينكم » .
فهى قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل في الأرض بين الجميع .
(هذا والدعوة بعدل في مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هي
وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) .
وتعلن الربوبية الواحدة : « الله ربنا وربكم » . . وتعلن فردية
التبعية : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » . . وتعلن إنهاء الجدل
بالتقول الفصل : « لا حجة بيننا وبينكم » . . وتكمل الأمر كله
إلى الله صاحب الأمر الأخير : « الله يجمع بيننا وبينكم وإليه
المصير » . .

وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة
الأخيرة ، في مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع
الحازم الدقيق . فهى رسالة جاءت لتمضي في طريقها لا تتأخر
بأهواء البشر . وجاءت لتهمين فتحقق العدالة في الأرض .
وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو في حقيقته موحد على
مدى الرسالات ..

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة المصيبة
المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل الجاهدين في الله مستنكراً
لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجبتهم باطلة فاشة ليس لها وزن

ولا حساب . فتنتهي هذه الفقرة بالفصل في أمرهم ، وتركهم
لوعيد الله الشديد :

« والذين يحتاجون في الله . من بعد ما استجيب له . حاجتهم
داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » . . .
ومن تكون حاجته باطلة مغلوية عند ربه فلا حاجة له ولا
سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان في الأرض ، الغضب والعذاب
الشديد في الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد
استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المفروض بعد وضوح الحق
الصريح .



ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :
« الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل
الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين
آمَنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في
الساعة لفي ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو
القوي العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ،
ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله في الآخرة من
نصيب » . . .

فإن الله أنزل الكتاب بالحق وأنزل المعدل ؛ وجعله حكما فيما
يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء
الناس وأهواءهم ؛ وأقام شرائعه على المعدل في الحكم . المعدل

الدقيق كأنه الميزان توزن القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة والمناسبة ، بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هي موعد الحكم العدل والفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدري إن كانت على وشك :

« وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ » . .

والناس عنها غافلون ، وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :
« يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » . .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ؛ فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محبوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، ويلتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون .

وإنها حق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

« ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد .. »
فقد أوغلوا في الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد
الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستمثار
بها ، إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل الله به على عباده :
« الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز .. »
وتبدو المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك .
ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :
« من كان يريد حرث الآخرة لزده في حرثه ، ومن كان
يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب .. »

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ،
والمؤمن والكافر . فمؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم
شيئاً ، وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ،
ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن
يرزقوا أنفسهم ولما اتوا جوعاً وعرياً وعطشاً ، وعجزاً عن أسباب
الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمته الله من إحيائهم وإعطائهم
الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو
عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ،
والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة
العمامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنة وابتلاء .

يخزي عليها الناس يوم الجزاء .

ثم جعل الآخرة حرثاً والدنيا حرثاً يختار منها ما يشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله في حرثه ، وأعاناه عليه بنيته ، وبارك له في عمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً . بل إن هذا الرزق الذي يعطاه في الأرض قد يكون هو بذات حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله في تسميره وتصريفه والإستمتاع به والإنفاق منه . . . ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئاً . ولكن لم يكن له في الآخرة نصيب . فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماسة في إرادة حرث الدنيا ! فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه مؤلأ ومؤلأ . فلكل منها نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له في علم الله . ثم يبقى حرث الآخرة خالصاً لمن أرادته وعمل فيه !

ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والإستعدادات الخاصة . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . ففي هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين في قضية الرزق . إنما يظهر الاختلاف والإمتياز هناك ! فمن هو الأحق الذي يستحق

حوت الآخرة . وتركه لا يغير من أمره شيئاً في هذه الحياة ؟
والأمر في النهاية مرتبط بالحق والميزان الذي نزل به الكتاب
من عند الله . فالحق والعدل ظاهران في تقدير الرزق لجميع
الأحياء . وفي زيادة حوت الآخرة لمن يشاء . وفي حرمان الذين
يريدون حوت الدنيا من حوت الآخرة يوم الجزاء ...

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟
ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم » وإن الظالمين لهم عذاب أليم .
ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا
وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاؤون عند ربهم ،
ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا
وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في
القربي ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور
شكور . . .

في فقرة سابقة قرر أن ما شرعه الله للأمة المسلمة هو ما
وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى
محمد ﷺ وفي هذه الفقرة يتساءل في استنكار عما هم
فيه وما هم عليه ، من ذا شرعه لهم ما دام الله لم يشرعه ؟ وهو
مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات ؟

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ .. »

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به
كائنًا من كان ؛ فאלله وحده هو الذي يشرع لعباده . بما أنه -
سبعانه - هو مبدع هذا الكون كله ، ومديره بالنواميس الكلية
الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إنما هي إلا ترس
صغير في حجة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع
يتماشى مع تلك النواميس . وكل من هذا الله قاصر عن تلك
الإحاطة بلا جدال . فلا يؤمن على التشريع لحياة البشر مع
ذلك النصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البدهة ؛ فإن الكثيرين
يحادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يبرؤن على استمداد
التشريع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير
لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشونه
من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو
كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله !
وليس أخيب من ذلك ولا أجراً على الله !

لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبعانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها
وقطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم
يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون
مع ذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولاً ،
وتحرك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة - مع
حاجات الحياة المتجددة ، في حدود المنهج الكلي والتشريعات

العامّة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا رده إلى الله ، ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس ، لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق .

بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

« ولولا كلمة الفصل لفضي بينهم » . . .

فقد قال الله كلمة الفصل بإمهامهم إلى يوم القسول الفصل . ولولاها لفضي الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عدا . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهاتهم ليوم الجزاء .

« وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . . .

فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم . وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عدا ؟

ومن ثم يمرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستتهرون :

« ترى الظالمين مشفقين بما كسبوا وهو واقع بهم » . . .

والتعبير المعجيب يحمل إشفاقهم « بما كسبوا » فكأنما هو

غسول مفزع ؟ وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون « وهو واقع بهم » .. وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً لا يخلص منه ، وهو واقع بهم .. »

وفي الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون . نجدهم في أمن وعافية ورخاء :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاؤون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ..

والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء : « في روضات الجنات » .. « لهم ما يشاؤون عند ربهم » بلا حدود ولا قيود . « ذلك هو الفضل الكبير » .. « ذلك الذي يبشر الله عباده » فهو بشرى حاضرة ، مصداقاً للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول ﷺ أن يقول لهم : إنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذي ينتهي بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هي مودته لهم لقربائهم منه ، وحسبه ذلك أجراً :

« قل لا أسألكم عليه أجراً . إلا المودة في القربى . ومن يقرب حسنة نزد له فيها حسناً . إن الله غفور شكور » .

والمعنى الذي أشرت إليه ، وهو أنه لا يطلب منهم أجرا ،
إنما تدفعه المسودة للقريبى - وقد كانت لرسول الله ﷺ
قراية بكل بطن من بطون قريش - ليعاود هدايتهم بما معه
من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التي يحملها لهم ،
وهذا أجره وكفى !

هذا المعنى هو الذي انقدح في نفسي وأنا أقرأ هذا التعبير
القرآني في مواضعه التي جاء فيها . وهناك تفسير مروي عن ابن
عباس - رضي الله عنها - أثبتته لوروده في صحيح البخاري :
قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد
ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة ، قال :
سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس - رضي الله عنها - أنه
سأل عن قوله تعالى : « إلا المودة في القريبى » فقال سعيد بن
جبير : « قريبى آل محمد » فقال ابن عباس : عجبت . إن
النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم
قراية . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القراية .

ويكون المعنى على هذا : إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة
للقراية . وتسمعوا وتلينوا لما أهدىكم إليه . فيكون هذا هو
الأجر الذي أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس - رضي الله عنها - أقرب من تأويل
سعيد ابن جبير - رضي الله عنه - ولكنني ما أزال أحس أن
ذلك المعنى أقرب وأندى .. والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يدكرهم - أمام مشهد الروضات والبشريات - أنه لا يسألهم عن شيء من هذا أجراً . ودون هذا بما حصل يطلب عليه الأدلاء أجراً ضخماً ! ولـسـكنه فضل الله الذي لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السباحة وحساب الفضل :

« ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » ..
فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل ..
ثم هي بعد هذا كله المغفرة والشكر :
« إن الله غفور شكور » ..

الله يغفر . ثم .. الله يشكر .. ويشكر من ؟ يشكر لعباده وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم في الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فياللفيض الذي يعجز الإنسان عن متابعته . فضلاً عن شكره وتوقيته !

★ ★ ★

ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :
« أم يقولون : افترى على الله كذباً ؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك » ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور . .

هنا يأتي على الشبهة الأخيرة ، التي قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحي ، الذي تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته في الجولات الماضية :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ .. »

فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأت شيئا من الله ؟

ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعي أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويوحيه ، وأن يظهر الحق من وراءه ويثبتته :

« فلإن بشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويبقى الحق بكلماته . »

وما كان ليخفى عليه ما يدور في خلد محمد ﷺ حتى قبل أن يقوله :

« إنه عليم بذات الصدور . . »

فهي شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المهود عن علم الله بالسرائر ، وعن قدرته على ما يريد ، وعن سنته في إقرار الحق وإزهاق الباطل . . وإذن فهذا الوحي حق ، وقول محمد صدق ؛ وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال . . وبذلك ينتهي القول — مؤقتا — في الوحي . ويأخذ بهم في جولة أخرى وراء هذا القرار .

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ^(٢٥)
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ^(٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ
مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ^(٢٧) .

(وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا
قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ^(٢٨)
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَ فِيهِمَا مِنْ دَأْبٍ وَهُوَ عَلَى جَعِيمٍ إِذَا
يَشَاءُ قَدِيرٌ ^{٢٩} وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا
كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ^{٣٠} وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ^{٣١} .

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٢٢)
 إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِي
 ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
 شَكُورٍ ٢٣ أَوْ يُوقِشْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ
 عَنْ كَثِيرٍ ٢٤ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
 آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مَخِيبٌ ٢٥ فَمَا أَوْعِدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
 فَتَنَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
 لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢٦ .

(وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَاءَهُمُ الْإِثْمَ
 وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٢٧
 وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَآتَوْا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنفِقُونَ ٢٨ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
 يَنْتَصِرُونَ ٢٩ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ
 عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظالمين^{٤٠} وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ
مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ^{٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٤٢} وَلَمَن
صَبَرَ وَخَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^{٤٣} .

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ
بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ^{٤٤} وَتَرَهُمْ
يُغْرَضُونَ عَلَيْهَا غَوَاشِينَ مِنَ الذَّلَالِ يَنْظُرُونَ
مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ^{٤٥}
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ^{٤٦} .

(إَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ
يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ^{١٧} فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا
الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً
فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ^{١٨} اللَّهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ
يَشَاءُ إِنَاقًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ^{١٩} أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاقًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ
عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ^{٢٠}

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^{٢١}

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا
كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَالَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ
عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^{٥٢}
صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ^{٥٣}

هذا القسم الثاني من السورة يمضي في الحديث عن دلائل
الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة فيها يحيط بالناس ،
وفيا يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفي صفة المؤمنين التي
تميز جماعتهم .. وذلك بعد الحديث في القسم الأول عن الوحي
والرسالة من جوانبها المتعددة .. ثم يعود في نهاية السورة إلى
الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبسبب القسمين اتصال
ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشري ، يصلانه بالوحي
والإيمان .

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ،
ويعلم ما تعملون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات
ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط

الله الرزق لعباده ليعبوا في الأرض . ولكن ينزل بقدر ما يشاء ،
إله لعباده خبير بصير . . .

تجيب هذه اللمسة بعدما سبق من مشهد الظالمين مشفقين بما
كسبوا وهو واقع بهم ، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات .
ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله ﷺ فيما بلغهم به عن
الله . وتقرير علم الله بذات الصدور .

تجيب لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من
ضلالة ، قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب
على مصراعيه ؛ فانه يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛
فلا داعي للقنوط واللجأ في المعصية ، والخوف مما أسلفوا من
ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها .
كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفي ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين .
فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم ، وهو
يزيدهم من فضله . « والكافرون لهم عذاب شديد » . . . وباب
التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن
يستجيب .

وفضل الله في الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود .
فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه
— سبحانه — من أن هؤلاء البشر لا يطيقون — في الأرض — أن
يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود .

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير » ..

وهذا يصور نازرة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق - هما حكارت - بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير . فإله يعلم أن عباده . هؤلاء البشر . لا يطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم في الرزق - من نوع ما يبسط في الآخرة - لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتلون إلا إلى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدرًا محدوداً ، بقدر ما يطيقون . واستبقى فيضه المبسوط ، لن ينجعحون في بلاء الأرض ، ويحتاجون امتعائها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .



« وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته وهو الولي الحميد » ..

وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الأرض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول . . الماء . . وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيى الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ،

ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ، ويدب النشاط ، وتنفرج الأسارير ، وتنفرج الأسارير ، وتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء .. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تفتح فيها أبواب الرحمة ، فتفتح أبواب السماء بالماء .. « وهو الولي الحميد » .. وهو النصير والكافل الممجد الذات والصفات ..

واللفظ القرآني المختار للمطر في هذه المناسبة .. « الفيث » .. يلقي ظل الغوث والنجدة ، وتلبية المضطر في الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الفيث .. « وينشر رحته » يلقي ظلال السداوة والخضرة والرجاء والفرح ، التي تنشأ فعلاً عن تفتح النبات في الأرض وارتقاب الثمار . وما من مشهد يريح الحس والأعصاب ، ويندّي القلب والمشاعر ، كمشهد الفيث بعد الجفاف . وما من مشهد ينفذ هموم القلب وتعبد النفس كمشهد الأرض تفتح بالنبت بعد الفيث ، وتنشئ بالخضرة بعد الموات .



« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيها من دابة . وهو على جميعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ..

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة لشهد بذاتها على ما جاء الوحي ليشهده ، فارتأوا فيه واختلفوا في تأويله . وآية

السموات والارض لا تحمل جدلاً ولا ريبة . فهي قاطعة في دلائلها . تخاطب الفطرة بلفتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولا غيره من خلق الله . ولا مفر من الاعتراف بمشئ مدبر . فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووسعة نواحيها الثابتة .. كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها . أما الفطرة فهي تتلقى منطق هذا الكون تلقياً مباشراً ، وتدركه وتطمئن اليه قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها .

وتنطوي آية السموات والارض على آية أخرى في ثناياها : « وما بث فيها من دابة » .. والحياة في هذه الارض وحدها — ودع عنك ما في السموات من حيوانات أخرى لا ندركها — آية أخرى . وهي سر لم ينفذ الى طبيعته أحد ، فضلاً عن التطلع الى إنشائه . سر غامض لا يدري أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ، وكل المحاولات التي بسذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستر . والأبواب — والمحصرات البحوث كلها في تطور الأحياء — يمد وجود الحياة — وتنوعها ، ووظائفها ؛ وفي هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات . فاما ما وراء الستر فبقي سرّاً خافياً لا تمتد إليه عين ، ولا يصل اليه ادراك .. انه من أمر الله . الذي لا يدركه سواه .

هذه الأحياء المبتوثة في كل مكان . فوق سطح الأرض وفي
ثناياها . وفي أعماق البحر وفي أجواز الفضاء — ودع عنك تصور
الأحياء الأخرى في السماء .

هذه الأحياء المبتوثة التي لا يعلم الإنسان منها إلا التزر اليسير ،
ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور . هذه الأحياء
التي تدب في السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء ، لا يفضل
منها فرد واحد ولا يغيب ا

وبنو الإنسان بهجزم أن يجمعوا سرباً من الطير الأليف
ينفلت من أقفاصهم ، أو سرباً من النحل بطير من خلية لهم ا
وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله . وأسراب من
النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله . وأسراب من
الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم موطنها إلا الله . وأسراب
من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله . وقطعان من
الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان ، وقطعان من البشر
مبتوثة في الأرض في مكان .. وممها خلائق أربى عدداً وأخفى
مكاناً في السماوات من خلق الله . . كلها . . كلها .. يجمعها الله
حين يشاء ..

وليس بين بشا في السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر .
والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع في لحظة على طريقه
القرآن ؛ فيشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهي
اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن ا

وفي ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم في هذه الحياة بما
كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لا يؤاخذهم بكل ما يكسبون .
ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به ،
وهم قطاع صغير في عالم الأحياء الكبير .

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .
وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا
نصير » ..

وفي الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتنجلي رحمة بهذا الإنسان
الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه .
ولكن الله لا يؤاخذهم بكل ما يقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما
ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان ، فيعفو عن
كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفي الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز
في الأرض ، وما له من دون الله من ولي ولا نصير . فأين يذهب
إلا أن يلتجئ إلى الولي والنصير ؟



« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح
فيظللن رواكد على ظهره . إن في ذلك لآيات لكل صبار
شكور . أو يوبقهن بما كسبن ويعنف عن كثير . ويعلم الذين
يمجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » ..

والسفن الجوارى في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله .
آية حاضرة مشهودة . آية تقوم على آيات كلها من صنع الله
دون جدال . هذا البحر من أنشاء ؟ من من البشر أو غيرهم
يدعي هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق
وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشاء مادتها
وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الرياح
التي تدفع ذلك النوع من السفن التي كانت معلومة وقتها للمخاطبين
(وغير الرياح من القوى التي سخرت للإنسان في هذا الزمان من
بخار أو ذرة أو ما يشاء الله بعد الآن) من جعلها قوة في هذا
الكون تحرك الجوارى في البحر كالأعلام ؟ ..

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » .

وإنها لتركد أحياناً فتهد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت
قد فارقتها الحياة !

« إن في ذلك لكل صبار شكور » ..

في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار
شكور . والصبر والشكر كثيراً ما يقتربان في القرآن . الصبر
على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة في
الضراء والسراء .

« أو يوقن بما كسبوا » ..

فيحطمن أو يفرقن بما كسب الناس من ذنب ومعصية

ومخالفة عن الإيمان الذي تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض
بني الإنسان !

« ويعف عن كثير » ..

فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام ، بل يسمح
ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .

« ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » ..

لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوفق سفائنهم ، وهم لا
يملكون منها نجاة !

وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة
الدنيا ، عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشيء إلا
الصلة الوثيقة بالله .



ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى كل ما أوتوه
في هذه الأرض متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة
الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم
يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفعة المؤمنين هؤلاء بما يعزهم ،
ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وممات !

« فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير
وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يحبون كِبائر

الإثم والقواش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، وبما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . . .

لقد سبق في السورة أن صور القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وكان تفرقهم بغياً بينهم لا جهلاً بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى - عليهم صلوات الله - وهو يشير كذلك إلى أن الذين أوتوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم في شك منه مرعب .

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل - صلوات الله عليهم - فعلى أولئك الذين لا يتبعون رسولاً ولا يؤمنون بكتاب أهل وأسمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها

إلى العروة الوثقى ؟ وتقود خطاهما في الطريق الواصل إلى الله
ورب وهذا الوجود جميعاً .

وتزل الله الكتاب على عبده محمد - ﷺ - قرآنًا عربيًا ،
لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع ما وصى به نوحًا وإبراهيم
وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ،
ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقم بها الجماعة المسلمة التي
تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أراها
الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها
وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية . نزلت قبل قيام الدولة
المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة
المسلمة : « أمرهم شورى بينهم » .. مما يوحى بأن وضع الشورى
أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ،
فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم
يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفراساً طبيعياً للجماعة .
كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : « والذين إذا أصابهم البغي
هم ينتصرون » .. مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة
هو أن يصبروا ولا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم
أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم : « أذن
للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . وذكر
هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة

يوجب بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ، وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة بطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلاً ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلاً .. ما هي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق بما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ، كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل

شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة :

« وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا . وما عند الله خير وأبقى » .

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاهها الله لعباده في الأرض تُلطفاً منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع - ولو في القليل - ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع . « وما عند الله خير وأبقى » .. خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ومحدود حين يقاس إلى الفيض المناسب . ومتاع الحياة الدنيا محدود الأيام . أقصى أمد له للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمد له للبشرية عمر هذه البشرية ، وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد .

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم ما هو خير وأبقى ..

ويبدأ بصفة الإيمان : « وما عند الله خير وأبقى » للذين آمنوا ، .. وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم

في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك الحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى باري الوجود في طاعة وسلام واستسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجباة التي تقود البشرية إلى باري الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ، ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرئد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المقام . إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته ، ويحس أن ليس له من الأمر شيء . إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ، وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أودى في

الدعوة ، ولا يفتر إذا ما استجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فلإنما هو أجير !

ولقد آمنت العصابة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجبياً . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت ونحضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصابة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا خسر العالم بالمحطاط المسلمين » . عن هذا الإيمان :

« المحلت العقدة الكبرى — عقدة الشرك والكفر — فالمحلت العقد كلها ، وجاهدتم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى .. » (١)

« حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم — يل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم — وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ،

(١) ص ٧٣ الطبعة الثانية .

وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد ،
لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا
يطفيهم غنى ، ولا تلهيهم تجساسة ، ولا تستغفهم قوة ، ولا
يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وأصبحوا للناس القسطاس
المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء الله على أنفسهم أو الوالدين
والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة
للإنسانية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . (١)

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول :

« كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون
فيها لكل ما خلق لأجلهم وينحضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب
الطائع بمجازاة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ،
فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، وليس لها سلطان على
أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم .
كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن ملكته
لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ، فآخذوا بأيديهم أزمة الأمر ،
وقولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير
ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد
على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق
السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ

(١) ص ٧٤ الطبعة الثانية .

فن التاريخ، يقال له : من بنى هذا القصر المتيق ؟ فيسمى ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحبه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمه غامضة ، قاصرة بجملة ، لا تبعث في نفوسهم هبة ولا عبة ...

« ... انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العلية الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضعة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباري ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يحيي ولا يحار عليه ... إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه . يثيب الجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسياتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيبياً . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن . تغفل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ،

وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جرائم الجاهلية
وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً
غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر
والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل
والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه
إلى الأبد ، وعجز المسلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل
العميق ، (١) .

« وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على
صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة وإرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها
والإنصاف منها ، وكان أقوى وأزح عرفه تاريخ الأخلاق وعلم
النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمعت
السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطنة
وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول
هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ، ووخزاً لا ذعاً للضمير ، وخيالاً
مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ،
ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتعملها مطمئناً مرتاحاً ،
تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة (٢) . »

« ... وكان هذا الإيمان حارماً لامانة الإنسان وعفافه
وكرامته ، يملك نفسه النزاع أمام المطامع والشهوات الجارفة ،

(١) من ٧٥ - ٧٦ الطبعة الثانية .

(٢) من ٧٦ .

وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المفهم ، وأداء الامانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان (١) .

« وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخسار والترك والسياسة والإجتاع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ، يسرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك السلطان ، والأمر والنهي ، ولأنفسهم بالرعية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا أنفسهم المقادة ، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأمانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالا ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يجاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يمتطون ولا يمتنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون ، إلا بإذنه ووفق أمره » (٢)

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة

(١) ص ٧٧ .

(٢) ص ٨١ .

التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقتضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذمكر ويميزها :

« وعلى ربهم يتوكلون » . .

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صورته . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه ، ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعله ولا تركه لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحداً إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ، قدير النفس في السراء ، لا تستطيره نساء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للفائد ، الذي يحتمل تبعه ارتياد الطريق .

« والذين يحبون كبائر الإثم والفواحش » . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من مكبات الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبلى قلب على صفاء الإيمان

ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها .
وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية
وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة
المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات
السابقة وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة
غير مسبوقة ولا ملحوقة . ولكنها كالمهم يشير إلى النجم
ليتهدي به من يشاء في معارك الشهوات .

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي
يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتنب
كبائر الإثم والفواحش . لأصغائر الإثم والذنوب . وتسعه
رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا
فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ، توجب الحياة من
الله ، فالسماحة تخفيل والعفو يشير في القلب الكريم معنى الحياة
« وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ..

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مسح
الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتعيب في السماحة والمغفرة بين
العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون .
وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛
فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال
بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شراً كله . فالغضب لله

ولدينه والحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يحمسه خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعطي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذه صفة مثلى من صفات الإيمان الحسنة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله ﷺ أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء . ولكن هذه درجة تلك النفس الحميدة العظيمة ، لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكفني منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

« والذين استجابوا لربهم » . .

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . . . عوائق من وجسودها هي وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولاً . وحيلث ذلك تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمتصها . . وهذه هي الاستجابة في عمومها . ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

« وأقاموا الصلاة » ..

والصلاة في هذا الدين مكانة عظمى ، فهي التالية للمساعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهي صورة الاستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبد وربّه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد رحمة سجداً ، لا يرتفع رأس على رأس ولا تتقدم رجل على رجل ! ولعل من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى - قبل أن يذكر الزكاة :

« وأمرهم شورى بينهم » ..

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبح الحياة كلها بهذه الصيغة . وهو كما قلنا نص مكّي : كان قبل قيام الدولة الإسلامية فهذا الطابع إذا أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حساباتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنمض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيئته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه

طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من ألزم صفات القيادة

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبواً في قالب حديدي ، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء .. وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالمقيدة الإسلامية . فهذه المقيدة — في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها — تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري ، شيء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ، ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، مجرد تنظيمها لا خلقها وإنشائها . ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي ..

ومق ووجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ،
نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب
هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ، وتحقق المبادئ الإسلامية
للكلية خير تحقيق .

« وما رزقناهم ينفقون » ..

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي
حددت في السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من
رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه
ولد مع مولدها .

ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا يسد منه تطهيراً للقلب من
الشع ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه
ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك
لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولا بد من التكافل في هذا
الكفاح وجرائره وآثاره . وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً
بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث في أول العهد بهجرة
المهاجرين من مكة ، وتزولهم على إخوانهم في المدينة . حتى إذا
هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة
المؤمننة المختارة بهذه للقيادة الصفات ..

« والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ..

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف .
فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الإلتصاف من
البغي ، وعدم الخضوع للظلم وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت
للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ،
وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ، وهي عزيزة بالله .
« والله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . . فمن طبيعة هذه الجماعة
ووظيفتها أن تنصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا
كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، ول مقتضيات
تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا
أيديهم وقيموا الصلاة ويؤثروا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا
يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة
والصبر في العهد المكي :

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وقتلتهم عن دينهم لم تكن
تصدر من هيئة مهيمنة على الجماعة . فالوضع السياسي
والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قليلاً مخلصلاً . ومن ثم كان
الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إذا كان ذا نسب ،
ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ولم يقع إلا في
الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين
كجماعة - كما كان السادة يؤذون مواليتهم إلى أن يشترتهم
المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً . ولم يكن

الرسول ﷺ يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسألة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من الخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تشور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حسادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، وتقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوقفة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوقف الدائم ، وإخضاعها لمسدد ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغرم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسألة والصبر في مكة . مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ..

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » . .

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استعباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء . فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سمحة ولم يجهض ضعفاً يخجل ويستحي ، ويحس بأن خصمه الذي هفاهو الأعلى . والقوي الذي يعفو تصلو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والمجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند المجز . فليس له ثمة وجود . وهو شرط مع المعتدي ويذل المعتسدي عليه ، وينشر في الأرض الفساد !

« إنه لا يحب الظالمين » . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الإعتداء ، من ناحية أخرى . وتوكيد آخر أكثر تفصيلاً :

« ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم » . .

فالذي ينتصر بعد ظلمه ، ويحزي السيئة بالسيئة ، ولا يمتسدي ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقبة الم شروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ، وفيها باغ يحور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحسالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لاستعزاء ؛ وتجملا لا ذلا ؛

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والفيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغي . وتعلقها بالله ورضاه في كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ..



وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض في الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

« ومن يضل الله فما له من ولي من بعده ؟ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضل الله فما له من سبيل ، .. »

إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها « ومن يضل الله فما له من ولي من بعده ، .. فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحققت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذي قسده الله .. والذي يعرض منه مشهداً في بقية الآية :

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من

سبيل ، و تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ، ..

والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . لأنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والإنهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار « خاشعين ، لا من التقوى ولا من الخيساء ، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار : « ينظرون من طرف خفي » .. وهي صورة شاخصة ذليلة .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : « وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » .. وهم هؤلاء الذين خسروا كل شيء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟

ويحيى التعليق العام على المشهد بياناً لمسأل هؤلاء المعروضين على النار :

ألا إن الظالمين في عذاب مقيم . وما كان لهم من أوليساء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل ..
فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

* * *

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المسكابين ،
ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يحدوا لهم
ملجأ يقيمهم ، ولانصيروا ينسكروا مصيرهم الأليم ، ويوجه
الرسول ﷺ إلى التخلي عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا
لهذا النذير ، فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :
« استجيبوا لربكم من قبل أن أت يأتي يوم لا مرد له من الله ،
مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما
أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ » ..

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذي يعارض ويعاند ،
ويمرض نفسه للأذى والعذاب ، وهو لا يحتفل في نفسه للأذى ،
وهو رقيقساق الإحتال ، يستطار بالنعمة ، ويحزع من الشدة ،
ويتجاوز حده فيكفر من الضيق !

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم
سنة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » ..

ويمتدح على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء
ومن العطاء والحرمات كله بيد الله . فقال هذا الإنسان المحب للخير
الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره في جميع
الأحوال :

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن
يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ،
ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير » ..

والذرية مظهر من مظاهر المنع والتمنع والعطاء والحرمات ؛
وهي قريبة من نفس الإنسان ؛ والنفس شديدة الحساسية بها .
فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق في السورة
حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة في الرزق بالذرية .
وهي رزق من عند الله . كاللؤلؤ .

والتقديم بأن الله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب
لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام . وهكذا
ذكر : « يخلق ما يشاء » .. فهي تأكيد للإيماء النفسي المطلوب
في هذا الموضع . ورد الإنسان ، المحب للخير ، إلى الله الذي يخلق
ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمات : فهو يهب لمن يشاء إناثاً
(وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب
لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجمعه
عقياً (والعقم يكرهه كل الناس) .. وكل هذه الأحوال خاضعة
لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه
وينفذها بقدرته : « إنه عليم قدير » .

* * *

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التي تدور
عليها السورة . حقيقة الوحي والرسالة يعود إلى هذه الحقيقة
ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ،
وفي أية صورة يكون ويؤكد أنه قد وقع فعلاً إلى الرسول الأخير

ﷺ لغاية يريد بها الله سبحانه . ليهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي بـه من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهـدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور . »

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضي الله عنها : « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » (١) إنما يتم كلام الله للبشر بواسطة من ثلاث : « وحياً » يلقي في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، « أو من وراء حجاب » .. كما تكلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطلق تجلي الله على الجبل « وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » .. « أو يرسل رسولا » وهو الملك « فيوحي بإذنه ما يشاء » بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ .

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه

(١) متفق عليه .

كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .. والثانية : أنه كان ﷺ يتعمل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يمي عنه ما يقول . والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذه زيد ابن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحى . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم (١) .

هذه صور الوحي وطرق الاتصال .. « إنه عليّ حكيم » ..
يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار ..

وبعد فإنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي ..
كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان ، المحيط بكل شيء ، والتي ليس كمثلها شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان

(١) عن « زاد المعاد » للإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية .

والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات ، من أبناء الفناء ؟ ثم كيف
يشمل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات ؟

وكيف تطبق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي
الأبدي الذي لا حيز له ولا حدود ؟ ولا شكل له معهود ؟
وكيف ؟ وكيف ؟ ..

ولكنني أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت
لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتميزة القاصرة الفانية ؟ !
لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة . وصار لها وجود هو
الذي تملك أن تدركه من وجود .

ولكن الوهة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه
أمر عظيم حقاً . وإن لحظة التلقي هذه لعظيمة حقاً . تلقي الذات
الإنسانية لوعي من الذات العلوية .. أخي الذي تقرأ هذه
الكلمات ، أنت معي في هذا التصور ؟ ! أنت معي تحاول أن
تتصور ؟ ! هذا الوعي الصادر من هناك . أقول هناك ؟ ! كلا .
إنه ليس هناك ، الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز
ولا حد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائي ،
الأزلي الأبدي ، الصادر من الله ذي الجلال . إلى إنسان . .
إنسان مهياً يكن نبياً رسولاً ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود
والقيود .. هذا الوعي . هذا الاتصال العجيب . المعجز .
الذي لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله
كيف يقع ويتحقق . . أخي الذي تقرأ هذه الكلمات . هل

تحسن ما أحسن من وراء هذه العبارات المتقطعة التي أحاول أن أنقل بها ما يخالج كياني كله ؟ إنني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كياني كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم الخارق في طبيعته ، والخارق في صورته ، الذي حدث مرات ومرات . وأحسن بحدوثه فأس رأوا مظاهره رأي العين ، على عهد رسول الله ﷺ . وهذه عائشة رضي الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة في تاريخ البشرية فتروي عن واحدة منها تقول : « قال رسول الله ﷺ : يا عائشة . هذا جبريل يقرئك السلام » قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى ما لا نرى ^(١) . وهذا زيد ابن ثابت - رضي الله عنه - يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله ﷺ على فخذيه ، وقد جاءه الوحي فتعلمت حق كادت ترض فخذيه . وهؤلاء هم الصحابة - رضوان الله عليهم - في مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه في وجه الرسول ﷺ فيدعون له للوحي حق يسرى عنه ، فيعود إليهم ويعودون إليه ...

ثم.. آية طبيعة . طبيعة هذه النفس التي تتلقى ذلك الاتصال العلوي الكريم ؟ أي جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذي يتصل بهذا الوحي ، ويختلط بذلك العصر ، ويتسق مع طبيعته وفجواه ؟

(١) أخرجه البخاري .

إنها هي الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تترأى
هنالك بعيداً على أفق عال ومرتقى مساعد ، لا تكاد المدارك
تتملاء !

روح هذا النبي ﷺ روح هذا الإنسان . كيف يا ترى
كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقي ؟ كيف كانت تفتح ؟ كيف
كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجد الوجود في هذه
اللمحات المجيبة التي يتجلى فيها الله على الوجود ؟ والتي تتجاوب
جنباة كلها بكلمات الله ؟

ثم . . أية رعاية ؟ أية رحمة ؟ أية مكرمة ؟ . . والله
العلي الكبير يتلطف فيمنى بهذه الخليفة الضئيلة المساء بالإنسان .
فيوحى إليها لإصلاح أمرها ، وإثارة طريقها ، ورد شاردها . .
وهي أمون عليه من البموضة على الإنسان ، حين تقاس إلى
ملكه الواسع المريض ؟ !

إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان
إلا تطلماً إلى الأفق السامق الوضيء :

« وحدك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري
ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء
من عبادنا . وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي
له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .
« وكذلك » . « بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال .

« أوحينا إليك » .. فالوحي تم بالطريقة المعبودة ، ولم يكن أمرك بدعاً . أوحينا إليك « روحاً من أمراً » .. فيه حياة ، يثبت الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفي الواقع العملي المشهود . « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » .. هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحي . وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفاً في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتغال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير . وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لا يس قلب محمد - عليه صلوات الله .

« ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء » . وهذه طبيعته الخالصة . طبيعة هذا الوحي هذا الروح . هذا الكتاب . إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدي به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها .

« وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » .. وهناك تأكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى ، بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملازمة ، وتطبيقها بالله وحده يقدرها من يشاء يعلمه الخصاص ، الذي لا يعرفه سواه ، والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله ، فهو لا يتشبه الهدى في القلوب ، ولكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله .

« وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما
في السموات وما في الأرض » .. فهي الهداية إلى طريق الله ،
الذي تلتقي عنده المسالك ، لأنه الطريق إلى المالك ، الذي له
ما في السموات وما في الأرض ؛ فالذي يهدي إلى طريقه يهدي
إلى ناموس السموات والأرض ، وقوى السموات والأرض ،
ورزق السموات والأرض ، وانجساة السموات والأرض إلى
مالكها العظيم . الذي إليه تتجه ، والذي إليه تصير :
« ألا إلى الله تصير الأمور » ..

فكلها تنتهي إليه ، وتلتقي عنده ، وهو يقضي فيها بأمره .
وهذا النور يهدي إلى طريقه الذي اختار للعباد أن يسيروا
فيه ، ليصيروا إليه في النهاية مهتدين طائعين .



وهكذا تفتحي السورة التي بدأت بالحديث عن الوحي . وكان
الوحي محورها الرئيسي . وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات
الأولى ، لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق .
وتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رساله محمد ﷺ
وفي العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتكل إلى هذه العصبة أمانة
القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات
وما في الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ،
الذي تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التي
تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم ..

مصدر عن دارالشريعة

في شريعة قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- مشاهد القيامة في القرآن
- التصوير الفني في القرآن
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- خصائص الصور الإسلامي ومقوماته
- الشد الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- هذا الدين
- السلام العلي والإسلام
- معالم في الطريق
- دراسات إسلامية
- نحو مجتمع إسلامي
- في التاريخ فكرة ومهاج
- تفسير آيات الربا
- تفسير سورة الشورى
- كتب وشخصيات
- المستطيل لهذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العنقدة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الأستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- منهج الفن الإسلامي
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- معركة التقاليد
- في النفس والمجتمع
- التطور والثبات في حياة البشرية
- دراسات في النفس الإنسانية
- هل نحن مسلمون
- قبسات من الرسول
- شبهات حول الإسلام
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- مفاهيم ينبغي أن تصحح
- ملهات فكرية معاصرة
- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- تحت الطبع
- المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

- مصنف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
نحلة للمصاحف وقمة التفسير
في أحجام مختلفة وطباعت منفصلة لبعض الأجزاء
- تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام عقيدة وشرعية
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت
عن توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي
- أنبياء الله
الأستاذ أحمد مبحث
- نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد مبحث
- رواية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني السدي
- الحجوة في الفرائد السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد المال سالم مكرم
- الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد المال سالم مكرم
- على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير
- الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام
- محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
- مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
- الإسلام في مفرق الطرق
الدكتور أحمد عروة
- العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي حسي
- موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي حسي
- الحرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي حسي
- مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي حسي
- القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي حسي
- الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي حسي
- الإسراء والمعراج
مضيفة الشيخ منبى الشراوي

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم العطفي

أيها الولد المحب

الإمام العراقي

الأدب في الدين

الإمام العراقي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان

الأستاذ مهدي عويدي

خطايا الإسراء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب

الدكتور عبد الحليم شلي

تأويل القرآن

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المعاصرة

الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات

تأليف الدكتور علي عبد الله الدماخ

تعريب وتعليق الدكتور حلال شوقي

مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخير الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه

الإسلامي

الدكتورة سحر رشاد مهنا

الأعيان القديمة في الشرق

دكتور رؤوف شلي

القهواء والقندر

لمصيلة الشيخ منولي الشراوي

قصايا إسلامية

مصيلة الشيخ منولي الشراوي

التعبير الفني في القرآن

الدكتور نكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي

الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدتين

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكلهم

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدهوة الوعائية

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون - أدب ودين

الأستاذ السيد أبو ضيف المدي

قل يا رب

الأستاذ السيد أبو ضيف المدي

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

التجديد حول أسماء الله الحسنى

الأستاذ عبد الحفي سعيد

الجهان والمنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم العطفي

رقم الإيداع : ٥٩٢٦ / ٨٨
التوزيع الدولي : ٠ - ٢٦٩ - ٩٤٨ - ٩٧٧

مبادئ الشريعة الإسلامية

[illegible]



في ظلال القرآن

العدالة الاجتماعية في الإسلام

خصائص التصور الإسلامي ومفوماته

النقد الأدبي أصوله ومناهجه

كتب وشخصيات

الإسلام ومشكلات الحضارة

التصوير الفني في القرآن

مشاهد القيامة في القرآن

معركتنا مع اليهود

تفسير سورة الشورى

تفسير آيات الربا

دراسات إسلامية

السلام العالمي والإسلام

معركة الإسلام والرأسمالية

في التاريخ فكرة ومنهاج

معالم في الطريق

هذا الدين

المستقبل لهذا الدين

نحو مجتمع إسلامي

To: www.al-mostafa.com